

البَابُ الأولُ

من عالم النور إلى بحر الظلمات

يا أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول لكم : مرو
بالعرف وانثوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم ،
وتستصروني فلا أنصركم . وتسالوني فلا أعطيكم .
حديث شريف

في الصفحات التالية جولة عجيبة في فروع من التاريخ ، تعبر بها وقائع تحيرناها ، عن أسباب
الفساد الذي أصاب المسلمين من سقطات الولاة وفرطات الجماعة وإغضاء أهل العلم ، يتضح منها
للناس أن الوسيلة لصلاح بالهم هي العودة إلى الأمر الأول : أمر النبي ﷺ وصحبه ، حيث
الشرعة مطبقة يعضون عليها بالتواجد ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا . ولما نسي المسلمون الله
أنساهم أنفسهم ، وعلا شأن الشعويين والفرس والأتراك ، وأوشك المجتمع الإسلامي أن يكون غير
إسلامي !

وتساءل المسلمون متى نصر الله ؟ وكان الجواب ظهور أحمد بن تيمية في القرن السابع ومحمد
ابن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر للهجرة .

والكلام في هذا الباب فصول :

الأول : خاص بمسيرة التاريخ كما تابعت بها القرون حتى كُجكب المسلمون في أمور يكفرها
دينهم أو يبدعها ، تُعطل الدأب وتُطفئ شعلة الفكر وتربطه في داخل حلقة مفرغة من الوهم الذي
يقتل الأمم .

والثاني : خاص بالفلسفات التي ينتسب بها بعض للتصوف . والصوفية الصلحاء منها براء .
وكيف أدخلت على الإسلام وأوقفت ازدهار مجتمعات المسلمين .

والثالث : خاص بانتصار ابن تيمية ومدرسته للمنهج السلفي وانتصاره به .

obeikandi.com

الفصل الأول

من خير القرون إلى ظهور البدع

« خير لقرون قرى ثم لدين يومهم ثم لدين يومهم » .

حديث شريف

كانت السنوات الأولى من عمر الإسلام سنوات تكوين وتمكين بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح واجتماع الكلمة ، وانطلاق العرب بالإسلام خارج جزيرتهم كانتشار الضوء بعد انفجار الفجر في كل الأرجاء .

وخلف الصديق صاحبه ﷺ . ثم استخلف الفاروق . واختار أهل الشورى عثمان بعد عمر فبايعه المسلمون .

ثم بايعوا علياً بعد مقتل عثمان سنة ٣٥ إلا كبراء بني أمية وعلى رأسهم معاوية في الشام وثلة ممن شايعوه من الصحابة .

ودب ديب الفرقة ، فدارت رحى الحرب بين علي وبين طلحة والزبير في موقعة (الجمل) وأظفره الله بهما ، فصفح الصفح الجميل ، ثم تلاق علي وجند الشام في موقعة (صفين) . وأدرك معاوية وبني أمية معه أنهم منهزمون . فرفعوا المصاحف على شبا الرماح طالين (تحكيم كتاب الله) . ولم يكن لأمر المؤمنين معدى عن أن يقبل التحكيم ، فخرج عليه من جيشه (الخوارج) . وهم يسمون كذلك : إما لخروجهم في سبيل الله كما وهموا ، وإما للخروج على الجماعة كما فهم المسلمون ؛ وهزمهم أمير المؤمنين (بالهروان) ، واستشهد بطل الإسلام . في كبريات حروبه ، بطعنة (خارجي) في المسجد سنة ٤٠ .

وبابح الناس بعده ابنه الحسن . فلبث أشهراً ، ثم تصالح هو ومعاوية ، وقامت دولة بني أمية سنة ٤١ لتبقى تسعين عاماً ونيفاً حتى سنة ١٣٢ (٦٦٩ - ٧٤٩ م) .

أسى معاوية الناس بكيسه وسخائه خروجه على أمير المؤمنين وقسوته على شيعته ، فلم يستعمل الحسام كلما أجزأه الكلام ، وقد طالما أجزأه . وكان نصيح الرأي يفظن للمأق البعيد للخطر . فشغل جيوش المسلمين بالجهاد ، فكان فيها الحسين بن علي والعبادة (١) وصحابة الرسول ﷺ .

(١) جمع عند الله العبادة الأربعة ابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن الزبير .

وكان المسلمون ينتصرون .

وكانت سنواته العشرون سنوات رخاء وفتوح في البر والبحر وفي أنفس الناس . دراح بأسو الجراح ، فلم يأكل كبده الضغن . وأنزل الله في قلبه السكينة ، وانتقلت من قلبه إلى الجمهور ، وكانت نقلة الأمة من أعاصير الفتن إلى عصر السلام مآثرته .

وربما أجزأ عن الشروح أو فلسفة التاريخ إسهاد الوقائع . وقد يكنى منها واقعة واحدة من حياته اليومية توضح فلسفته وطريقته أو سياسته . والوقائع أشياء وأشخاص تتكلم . والناس لها أسمع وأبصر :

روى جلساؤه في دمشق ما قاله (الزرقاء بنت عدى) أيام كانت تحرض الكتائب من جيش أهل الكوفة فأمر الوالي أن يسيرها إليه وأن يكرمها . . حتى إذا جاءته قال : كيف حالك يا خالة وكيف مسيرك إلينا ؟ قالت : خير مسير . قال : ما حملك على أن تحرضي علينا ؟ قالت يا أمير المؤمنين : قد مات الرأس وبتر الذنب ، والدمر ذو غير . ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر .

قال : هل تحفظين ما قلت ؟ قالت : لا

قال : لله أبوك ! لقد سمعتك تقولين :

(أيها الناس ، إن المصباح لا يضيء في الشمس ، وإن الكواكب لا تضيء مع القمر ، وإن البغل لا يسبق الفرس ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . . إنه لا يستوى الحق والمبطل . أفن كان مؤمنا كمن كان فاسقا . لا يستون . فالنزال النزال ، والصبر الصبر ، ألا وإن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء !) .

يا زرقاء . أليس هذا تحريضك ؟

قالت : لقد كان ذلك .

قال : لقد شاركت عليا في دم سفكه

قالت : أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدام سلامتك ، مثلك يبشر بغير ويسر جليبه !

قال : أوقد سرك ذلك ؟

قالت : والله لقد سرني وأثني لي بتحقيقه .

قال : والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إليّ من حبكم له في حياته . فاذكري حاجتك .

قالت : يا أمير المؤمنين ، إني آليت على نفسي : لا أسأل أحداً بعد عليّ حاجة .

قال : لقد أشاروا عليّ بقتلك .

قالت : لئوم من المشير ولو أطعته لشاركته .

قال : كلا ، لنعفون عنك .

قالت : يا أمير المؤمنين كرم منك ، ومثلك من قدر فعفا ، وتجاوز عن أساء . وأعطى من غير مسألة !

فأعطاهما كسوة ، وأقطعها ضيعة !

وولى بعد معاوية ابنه يزيد (٦١ - ٦٤) . وفعل يزيد الأفاعيل بالمسلمين : من استشهاد الحسين بن علي في كربلاء واستشهاد ستة إخوة معه وخمسة من حَقْدَة فاطمة . واثنين من أبناء عبد الله بن جعفر زوج زينب بنت علي ، إلى وقعة الحرة بالمدينة سنة ٦٣ حيث استشهد (أهل بدر) في محاربة يزيد ، فلم يبق على الأرض بدرى واحد ! إلى حرق جيشه للكعبة وهو ينسحب من حصار مكة بعد موته . وهى حوادث ثلاثة وقعت فى سنوات ثلاث هى كل حكمه ، أولعنت ثلاث تنزلها الساء بدولته . وتندر بها المسلمين ليصُروا بآثار الفرقة والصراع على السلطة ! وكانت النذر أقرب إلى قلب معاوية بن يزيد ، إذ خلفه فتزل عن الخلافة ، وأعلن أن آباءه كانوا جائرين . فكان هذا حكماً عليهم من أنفسهم .

• • •

وبايع بنو أمية من بينهم مروان بن الحكم وخلفه ابنه عبد الملك فأقر أخاه عبد العزيز بن مروان أميراً على مصر ، وتتابع الملك العضود فى أبناء عبد الملك الأربعة نحو الأربعين عاما وإن توسط عقدها ثلاثون شهراً أو نحوها من خلافة راشدة لابن عمهم وزوج أختهم عمر بن عبد العزيز . بدأها باستدعاء الجيش الذى يحاصر القسطنطينية إدراكاً منه أن (المسلمين أحب إلى من الروم وما حوت) كما قال .

وضرب عمر من نفسه مثلاً للمسلمين بالتقوى والزهد والبعد بنفسه وأهله فى رد المظالم . ولما قدر على نفسه وأهله قدر على الناس : فأقام الحدود وأغنى المحتاجين ، فلم يوجد عند توزيع الصدقات من يستحق الصدقة سواء فى المدينة المنورة أو فى أفريقية ! وأصبح الناس إذا تلاقوا سأل بعضهم بعضاً عن عباداتهم وأورادهم فى ليالهم . وسار سيرة جده لأمه عمر بن الخطاب (١) إذ سئل : كيف تقرب القرى وهى عامرة ؟ فأجاب : (إذا علا فجأرها أبرارها وساد منافقوها) ، فأدنى الأبرار منه وأقصى عنه أهل النفاق ، وأدق النظر فى اختيار عاله .

ولم يكتف بتطبيق الشريعة ، بل جعل ولاية الحكم للفقهاء : فأبوا الزناد صار كاتباً

(١) رد عمر للمسلمين ما أخذ به بنو أمية ومروان من أموالهم . فافتقر بنو أمية ومروان ، فطلبوا إليه أن يرحوا دمشق سعيًا للرزق ، فأذن لهم . وأنفذوا إليه عثم . قالت له : أخاف أن ييجوا عليك يوماً عصبياً . قال : كل يوم أخافه دون يوم القيمة لا وقتى الله شره . فعادت إلى قومها تقول لهم : تزوجوا ابنكم عبد العزيز من آل عمر فإذا نزع ابنه إلى الشبه جزعتم !

لعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في خراج العراق ، والحسن البصري صار قاضياً للبصرة . وميمون بن مهران تولى خراج الجزيرة ، وسليمان بن يسار تولى سوق المدينة . وأبو بكر بن حزم صار قاضياً للمدينة وأميرها ، ويحيى بن سعيد هو القاتل : (بعثني عمر على صدقات أفريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد فقيراً ! ولم نجد من يأخذها ! قد أغنى عمر الناس فاشتريت رقاباً فأعتقتهم) .

وحدث رجل من ولد زيد بن الخطاب قال : (إنما ولي عمر بن عبد العزيز ستين ونصف السنة . فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله . يتذكر من يستحقه منهم فما يعده فيرجع بماله . قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس !) . وهو من قبل أن يغنيهم كان يبعث إليهم في أمصارهم من يعلمونهم .

وأهمه تفرق السنن في صدور الحفظة . فكلّف ابن شهاب الزهري وأبا بكر بن حزم جمعها . وذات يوم دخل عليه غلام مع أبيه فسأله : ماذا تعلم ؟ قال الفقه ، قال : علمه الفقه الأكبر ، قال : وما الفقه الأكبر ؟ قال : القناعة وكف الأذى .

وكان من فقهه الأكبر يذكر الناس بغضبات السماء . ليعملوا صالحاً ترضاه ، ويتذكروا أسباب نعمة الله . فيكتب إلى عماله : (أما بعد : فهذا الرجع (زلزال) شيء يعاتب الله عز وجل به العباد ، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا وشهر كذا وكذا فمن كان عبده شيء فليصدق به فإن الله تعالى يقول : (قد أفلح من تركي وذكر اسم ربه فصلي) . وقولوا كما قال آدم : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) .

هذه الشهور الثلاثون من حكم عمر حجة الله على خلقه باقتدار رجل واحد ، في أقصر زمن ، على إصلاح ما تفسده دول بتامها . مهما استحكم الفساد واستغلظ ، إذا صدقت النية ، فإنه عندئذ يجد الرجال الصدق والطرائق القاصدة . ومن خلصت نيته لله فالله معه .

ويذكر المسعودي في مروج الذهب أن صاحب القسطنطينية إذ بلغه نعيه نزل عن سريره وبكى ، وقال لو قد من العرب ذهب للعداء بين الروم والمسلمين : لقد بلغني من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لظننت أنه يحيى الموتى ! ولقد كانت تأتيني أخباره باطنا وظاهراً فلا أجده مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد حين خلواته لطاعة مولاه . ولم أعجب لهذا الراهب الذي ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته . ولكنني عجبت لهذا الراهب الذي صارت الدنيا تحت قدمه . فزهد فيها حتى صار مثل الراهب ^(١) .

» « »

(١) قال أسلم : إنكأ عمر بن الخطاب على جدار في جوف الليل وهم يمس في المدينة ، فسمع امرأة تقول لها : فوي

أما حديث هذه الدولة السياسي من قبل عمر ومن بعده فيمكن إجماله في أنها رفعت رايات الإسلام فوق جبال القارة الهندية في قلب آسيا في الشرق ، وفي جبال الأندلس وأطراف أوربة على شواطئ المحيط الأطلنطي في الغرب ، على أيدي محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم في آسيا وموسى بن نصير وطارق بن زياد في أوربة . وفي الأندلس استقر المسلمون قرونًا ثمانية انتقلت فيها علوم المسلمين إلى أوربة المسيحية ؛ لتختتم العصور الوسطى وتبدأ العصور الحديثة ، وينتقل المنهج الإسلامي الذي جاء به القرآن إلى عصور النهضة فتبلغ به الحضارة الغربية مبالغها الحالية . كما يمكن إجمال تاريخ الحكم والظلم والعقاب والعذاب من السماء في حروب وثورات شغلت تاريخ بني أمية وبني مروان حصلها قول عبد الملك بن عمير الليثي لعبد الملك بن مروان إذ هو خليفة : (رأيت في قصر الإمارة بالكوفة رأس الحسين بن علي رضي الله عنها على ترس ، ثم رأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار بن عبيد ، ثم رأيت رأس المختار بن عبيد بين يدي مصعب ابن الزبير ، ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير بين يدي عبد الملك بن مروان ، فتحدثت بذلك إلى عبد الملك فطير منه) .

أما الرأس الأول فرأس ريحانة النبي ﷺ . وأما الرؤوس الثلاثة الأخرى فروس قواد أضرموا نيران الحروب على بني أمية وبني مروان والأخير منهم كان صديقاً لعبد الملك ومع ذلك سب إليه من قتله ! .

وكان عبد الملك معدوداً في الفقهاء حتى ولى السلطة فقست قلبه . والحجاج واحد من ولاته . وهو الذي ضرب الكعبة في حرب عبد الملك مع ابن الزبير إذ تنازعا على الخلافة . وكان لزاماً على الخليفة الفقيه أن يتوقع حساب السماء له على بطشه ويطش الحجاج لحسابه ! .

فسرى الناس عند قيام دولة بني العباس . بعد نصف قرن أو يزيد شيئاً ، سبعين ونيفاً من بني أمية يتصدرهم حفيده سليمان بن هشام بن عبد الملك يذبحون في ولجة أعدت لهم ، ولا يعني من الذبح إلا حفيد للرجل الصالح عمر بن عبد العزيز !

ويمكن إجمال الحديث عن ثلث القرن الأخير من عمر الدولة بعد موت عمر بن عبد العزيز بكلمات عن السنوات الأربع التي استخلف فيها يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥) فاستفتحها

- إلى اللين فمزقه ، قالت الفتاة : أما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين أنه لا يشاب اللين بالماء ؟ قالت المرأة : إنك موضع لا يراك فيه عمر ! قلت : والله ما كنت لأطيه في اللأ وأعصيه في الحفاة ! وعمر يسمع هذا كله .

قال عنه الباب واعرف الموضع - ومضى في عه ، فلما أصبح قال يا أسلم : امض إلى الموضع . فظفرت فإذا الجذبة آية لا بعل لها ، وإذا نيك لها لا بعل لها . فأنبت عمر فأخبرته ، فدعا ولده ، فجمعهم وقال : فيكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه ؟ قال عاصم : لا زوجة لي فزوجي ، فزوجها عاصماً ، فولدت له بنتاً . وولدت البنت عمر بن عبد العزيز .

برسالة منه إلى ولاته يقول فيها عن الرجل الصالح وعن أرواح المسلمين وأموالهم : (أما بعد فإن عمر كان مغرورا غررتوه أنتم وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج . فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى ، أخصبوا أم أجذبوا كرهوا أم أحبوا . حيوا أم ماتوا . والسلام) .

وليس بعد قتل الراعي للرعية وسلبها ذنوب !
وتواري يزيد في مبادله يلقي إليه السمع كل مثناء بنميم ، ويرعى سمعه مغني القصر لشهيرتين سلامة وحياة ، تثبطان نشاطه وتفسدان حاشيته ، فيصيح من تباريح غرامه : دعوى أصير ! وتطارحه الغانية الصبابة فتتف : إلى من تدع الأمة ؟

ولما لقطت حجابة أنفاسها تلفت نفسه ، فلفظ أنفاسه بعدها بأيام سبعة !
تلك حال الدولة التي صيرها معاوية (هركلية كلما مات هرقل قام هرقل) كما قال له عبد الرحمن بن أبي بكر . والتي حكمت العرب في الموالي وهم كثرة الأمصار ، فلم يصنع حال العرب في جزيرتهم ولا باء الموالي في سائر الديار . وأقبلت الجيوش من خراسان تطالب بعودة الحكم إلى أهل بيت النبي ، فليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى .

• • •

قامت دولة بني العباس (١٣٢ - ٦٥٦) على شعارين هما :

١ - إعادة الدولة للحكم الإسلامي الحق على أن يتولاها أهل بيت النبي .

٢ - المساواة بين الموالي والعرب .

لكن الدولة لم تكد تبدأ حتى أبعدت من الشعارين كل البعد ! فأصبحت ملكاً عضوداً يسيطر الموالي فيه على العرب ، ويوضع الأساس للحكم (شعوى) يقتلع كل ما هو عربي ويخلط في العقائد بقصد وبغير قصد ويقتك بأهل بيت النبي .

ولم يكد أبو جعفر المنصور يني بغداد (سنة ١٤٥) حتى غدت كهيئة صندوق الدنيا عدسة صغيرة يبصر فيها الناظر إليها عجائب العالم ومتناقضاته !

وسيحكم الجاحظ على الدولة بعد انقضاء قرن على قيامها فيقول : (دولتهم أعجمية خراسانية ، ودولة بني أمية عربية أعرابية !)

ولم يقتصر التخليط على الأفكار والأفعال ، بل تسرب إلى دماء الخلفاء فكثرت منهم اصجاء المأمون (٢١٨) أمه «مراجل» خراسانية ، والمعتمد أمه (ماردة) تركية ، وأم الواثق (قرطيس) رومية ، والمتوكل أمه (شجاع) خوارزمية ، والمعتز أمه (قبيصة) والمقتدر والمستكن أمهما روميتان والمطيع أمه صقلية !

وجنّ على البيت الهاشمي ليل بهم تدلج فيه البدع ، وتناهت إلى المسلمين إسرائيليات كثيرة وخلافات وعقائد من النصارى والفرس والإغريق . وبدأت آثار الفرقة تظهر في محيط المذاهب بين أهل السنة ، ومال بيت الخلافة عنهم زماناً ، فأضرم الفتنة . ثم مال إليهم فلم ينفع أو ينتفع ، فلقد ساءت سيرته واستئشس العلماء منه . أن صار نادياً للخمر وللهو منذ المائة الثانية من عمر الدولة . وحياة الأمم في عصره هي حاصل حياة أفرادهِ وقواده . والناس على دين ملوكهم . وبعد أن كان في الدولة جهاز لمقاومة الزندقة أصبح فيها من العلماء من يحرض المأمون والمعتمد على الفتك بعلماء الحديث والسنة . واقتربت نزعة الاجتهاد ونزعة التقليد ، ثم استبد التقليد بعقول العلماء ، وخبا الضياء . وزان الجهل على القلوب ، ولم يعد بين الخلفاء علماء أو أصحاب ورع ، بل شاعت أحاديث البلهنية والرفاهية عنهم ، وحكمت الخاشية باسمهم أو على الرغم منهم^(١).

(١) فقدت الدولة العباسية توازنها بعد موت الرشيد ، وكان أول الأسباب فساد الدين وسوء سلوك الخليفة الأمين ، إذ أوصى إليه الرشيد بالخلافة تغلياً للعصر العرفى في بني العباس فأتمه زبيدة بنت عم الرشيد ، وأوصى لأخيه الأكبر - المأمون - خراسان واستفتح الأمين عصر اللهو والخمر والمجون في بيت بني العباس على مدى سنوات خمس تعة . وثار خراسان على الخليفة العرفى الأب والأم ، كمثل ما ثارت على دولة بني أمية العربية الأعرابية كما يصفها الجاحظ ، وانتصرت جريشها على الأمين وقتلته وأحلت المأمون محله . وسار المأمون سيرة سوء في المحدثين : فنصل بين الأمة وبين الخلافة ، ثم خلفه أخوه المعتمد بعد أن وصاه المأمون أن يسير في المحدثين سيرته نفسها وأن يمتحنهم بمحنة خلق القرآن ، وهو الخليفة الذى ضرب أحمد بن حنبل ووضعه على العقابين ليعذب حتى الموت أو يقول بخلق القرآن ولو تقيّة .

وكان طبعياً وقد انحرفت الدولة عن الجادة على مدى تلك قرن من حكم الإخوة الثلاثة أن تنحرف عن العرب إلى الفرس في حياة المأمون ، فهم أخواله وجدته ، ثم إلى الترك في حياة المعتمد . فهم أخواله وجدته ! وكان غير طبعياً أن يسقط المعتمد العرب من ديوان الجيش ، وأن يقصره على الأتراك ، فقد لاذ منهم بذئب سيفترس أبناءه وخلفاءه . وأحدث الأتراك الانقسام بين الحكم وبين العقيدة . وأصبحت السلطة غرضهم على حساب الأمة والعقيدة . فوجه بنو العباس إلى النهو المزرى يفرقون فيه هومهم . وإلى السرف يعوضون فيه حقائق السلطة التى تفلتت من أيديهم إلى الترك ، فأصبحوا أسرى له ، معظاهر الثراء والحيجة ، ليظهروا في أعين الناس وفي أعين أنفسهم أنهم ما يزالون محل اعتبار ! فالواتق بن المعتمد - هو الذى توج أشناس التركى ملكاً .

وهو الذى جلس ذات يوم على سرير مرصع بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب في قصر مفروش بالوشى والديباج يشرب رطلاً بعد رطل من النبيذ ، وستمع إلى جاريته (فريدة) وهى تقى :

أنا بك إجلالاً وما لي حاجة إليك ولكن ملء عين حبيباً
وما هجرتك النفس يا ليل أنها قتلتك ولكن قل منك نصيباً

وأخذته الشوة فضرها برجله ، فتدهورت تحت السرير فكان : صنعت ذلك لأبني تصورت أنك ستعين بعدى للمتوكل ! ولما خفقه أخوه المتوكل (جعفر) اخفت فريدة ، وملكت قلبه الجارية (قيجة) . فآثر بها المعتز على ابنه الآخر المتضر ، فآثر المتضر على أبيه مع الأتراك فقتلوه سنة ٢٤٧ . ثم قتلوا المعتمد بعد ستة أشهر !

ولم يظهر أحد من الإسراف ما أظهره المتوكل : بلغ مجموع ما أنفق على بناء القصور مائتين وتسعين مليون درهم وهى ثلاثة أرباع دخل الدولة في عام ، وكانت كل نوبة من نوب الفرائشين في هذه القصور أربعة آلاف من السراى ، أما فراشه فيخصص له خمسمائة وصيفة أحظاهن عنده (قيجة) .

وكما استعان المأمون بأخواله الفرس استعان المعتصم بأخواله الترك فغلب الواغلون على الدولة ، وقتلوا ابنه المتوكل بمؤامرة مع ابن له ، ثم قتلوا ذلك الابن ، ثم ولوا المستعين ثم قتلوه (٢٥٢) ، وولوا المعتز ثم خلعه . بعد ثلاث سنوات وحسوه في بيت مسدود حتى مات فيه ! وولوا المهدي ثم قتلوه سنة ٢٥٦ ، وولوا المعتز ثلاثة وعشرين عاماً طالت قدر ما طال خضوعه لهم . فلقد طلب ذات يوم ثلثمائة دينار فلم يجدها ! وتناقل التاريخ شعره :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما هان ممتنعاً عليه
وتؤكل باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه ؟

ثم ولوا المعتضد فالمكتنن حتى مات سنة ٢٦٥ ، وولوا أخاه المقتدر وهو غلام أخذنا بنصح وزيرهم ابن الفرات حين رشحه للخلافة ، لأنه (صبي لا يدري أين هو ، وعامة سروره أن يصرف من المكتب) وثارت عليه طائفة منهم ولت ابن المعتز . وله الأرجوزة الدائنة الصبت في الأدب العربي ، وفي بيت واحد منها قانون السلطة الذي أخذ به الأتراك خلفاء بني العباس ، وهو في صليعة المأخوذين ؛ إذ لم يستخلف إلا ليلة ! فكان كما قال في أرجوزته :

كل يوم خليفة مقتول أو خائف مروع ذليل

ثم أعادوا المقتدر ، فكانت أمه تسوم الدولة وتجلس قهرمانتها (تُمل) للمظالم ! ولما قبضت أم المقتدر يدها عن الخنك قتلوا ابنها ، وولوا أخاه من غيرها ولقبوه (القاهر) فعقبها منكسة من رجل واحدة ليستخرج منها مائة وثلاثة آلاف دينار ! وخلع الأتراك القاهر بعد عامين ، وفقتوا عينه ، وأجاعوه ، فكان يتكفف الناس بين الصفوف في جامع المنصور !

ثم ولوا الراضي سنة ٣٢٢ فبقي حتى سنة ٣٢٩ ، وفي عهده أضيفت في خزائن الدولة إلى جمجمة وزير سابق « هو الحسن بن القاسم » يد وزير لاحق هو ابن مقله وهي صاحبة الخط الشهير باسمه . فحفظنا في سبط واحد كتب عليه : (إن هذه اليد هي التي أمرت بقطع هذا الرأس) ! وفي سنة ٣٢٩ ولوا المتقي ثم خلعه سنة ٣٣٤ وسملوا عينيه ، وولوا المكتنن ولم يمهله إلا أربعين يوماً ، ثم دخل عليه اثنان من النقباء الديلم فتناولوا يده ، فذها حسباناً منه أنها سيقبلان يده ! فجذباه من سريره وجعلاه عمامته في حلقة وساقاه ماشياً إلى دار معز الدولة البويهى وسملوا عينيه !

خرجت إليه يوم عيد النيروز تساقبه الخمر وتغنيه :

فيا من مناه في السريرة جعفر سقى الله من سقيا ثاباك جعفر !

وولوا ابنه المطيع ليبقى في طاعتهم حتى سنة ٣٦٣ ، وفي عهده قامت هوشة الكرخ من أحياء بغداد فحرقها الوزير معز الدولة (أبو الفضل الشيرازي) ، بل أرسل جنده فطرحوا عليها النار وأحرقوا النساء والصبيان والأموال . فهلك ١٧ ألف إنسان ، وثلاثمائة دكان ، وثلاثمائة وعشرون داراً . وثلاثة وثلاثون مسجداً . والبويهيون شيعة ، وسكان الكرخ شيعة ! وسيتابع الخلفاء المطاوع حتى المستعصم وهو الذي يقول ابن الطقطقي فيه وفي نداماه وحاشيته : (كانوا منهمكين معه في النعم واللذات لا يرجون له صلاحاً ! وما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوى الطرب ، وفي تلك الحال وصلت رسل السلطان الأكبر (هولاكو) يطلب منه منجنيقات وآلات حصار ، فقال بدر الدين : (انظر إلى المظلوئين ، وابكوا على الإسلام وأهله !) .

* * *

وجرى قضاء الله على المسلمين بما يستحقون . وبخاصة أولى الأمر منهم . سواء أكانوا الأمراء الذين استسخروا العلماء أو عمل العلماء في إضلالهم ، أم كانوا العلماء الذين أضاعوا العلم . ولم يأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر !

وتخلف عن آثار الانفصام الذي أصاب دولة تظهر النسك وتبطن نقيضه ، ومشيجة للعلماء يأخذ الأمراء من دينهم أضعاف ما يصيب العلماء من دنيا الأمراء . . . أن أصبحت الأمة رجراجة ، تنجذب بمنة أو بسرة على حسب ذبذبات السلطة ، وتدفعها بين هؤلاء وهؤلاء شهوات الحكام بالسلطة والقوة في مهاب الرياح الأربعة !

وحسبك أنباء صغيرة من (حوليات) ذلك الزمان تفوق دلالتها أفصح التعبيرات عن فساد كالمئات يسيل إلى الناس من علي . ولقد طالما فاقت همسات الصغائر جلجلة الكبار في الأثر ، وبخاصة عندما يقارنها صاحب السلطة أو رجل العلم الذي تطلع إليه العامة والخاصة :

لم يكد القرن الثاني للهجرة يشارف ختامه في أخريات عصر الرشيد حتى شرع ببيان الدولة العباسية في التصدع ، فقامت في أقطارها المتنازحة دويلات صغيرة أولاها دولة الأغابة (١٩٠ - ٢٢٠) في أفريقية ، ثم الدولة الطاهرية في خراسان ، ثم الدولة السامانية في عهد المعتضد ، ثم الدولة الصفورية في عهد المعتز ، وقامت بمصر الدولة الطولونية (٢٤٥ - ٢٩٢) ، فالدولة الإخشيدية^(١) (٣٣٢ - ٣٥٨) ؛ كما قامت الدولة الحمدانية في حلب (٣١٧ - ٣٩٤) .

وفي أفريقية قامت الدولة الفاطمية سنة ٢٩٧ لتبقى دولة كبرى حتى سنة ٥٦٧ .

(١) الإخشيد لقب فارسي كان يطلق على ملوك الفراعنة . ومعناه « ملك الملوك » وسرى بعد سخط الناس على هذا اللقب عندما ادعاه لنفسه الأمير التركي بلغة عربية .

وعلمت دولة بني بويه على الخلافة العباسية ابتداء من سنة ٣٣٤ إلى ٤٤٧ عندما دخل السلاجقة بغداد ، وصار الخلفاء ذمى في أصابع البويهيين . فالسلاجقة ، واستحبوا الخنوع ، واتخذوا المنصب الدينى وسيلة للمعاش . فأصبحوا عناوين كذب على حكم لا يمت إلى الدين بأوهى سبب .

يقول عنهم المسعودى فى سنة ٣٤٥ : (لم أعرض لوصف أخلاق المتقى والمستكى والمطيع ومذاهيبهم ؛ إذ كان هؤلاء الخلفاء كالمولوى عليهم : لا أمر ينقد لهم . أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلب على أكثره المتغلبون الذين استظهروا عليهم بكثرة الرجاى والأموال . واقتصروا على مخاطبة الخلفاء (بأمره المؤمنين) والدعاء لهم ، وأما بالحضرة فتفرد بالأموال غيرهم ، وصاروا خائفين . قد قنعوا باسم الخلافة ، ورضوا بالسلامة) .

وصار الخلفاء كهوان العلماء وغلول الأمراء ولصوصية الحرم - نذر دمار لا يتخلف : يذكر ابن الأثير فى الكامل أن المطيع قال للأمير البويهى إذ طلب منه مالا للغزو : (إن الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمى إذا كانت الدنيا فى يدى وتنجى الأموال إلىى ، وأما إذا كانت حالى هذه فلا يلزمنى شيء ! وإنما يلزم من البلاد فى يده ، وليس لى إلا الخطبة ، فإن شتم أن أعتزل فعلت) .

فخليفة المسلمين يعتزل الخلافة فيهم ، إذ يختلف هو ورجل ، بل هو لا يملك أن يعتزل إلا أن يأذن له الرجل !

ويقول ابن الجوزى فى كتابه المنتظم عن أحداث سنة ٤٢٦ : إن سخط الخليفة القائم بأمر الله على الدولة بلغ به أن يأمر القضاة بالامتناع عن الحكم ويأمر الخطباء (ألا يحضروا إماماً ولا يعقدوا عقداً !) .

فخليفة المسلمين يعطل أحكام الشريعة إذا غضب ويجريها إذا رضى ! ومن قبل هذا الانتقاض على الدولة التى تدار باسمه كان الخطباء ينتقصون على الخليفة ذاته : روى ابن الجوزى فى حوادث سنة ٤٠٢ أنهم كانوا بعد الدعاء للنبي ﷺ يضيفون دعاء شيعه على بن أبى طالب : (وعلى أخيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب مكلّم الجمجمة ومحى الأموات ، البشرى الإلهى ، ومكلّم فنية أهل الكهف !)

وإذا كان خليفة المسلمين خشخاشه ، وكان الدعاء لعل على المنبر يقترن بأراجيف مكفرة ترفعه على رسول الله ﷺ - فلم لا يضيف أمير بني بويه لنفسه لقباً يشبه نفسه فيه بالله جل جلاله ؟ ولم لا يمشى إليه الخليفة هرولة ، أو يتبادر العلماء فى ركابه ؟

وصدق رسول الله ﷺ : (من شر ما أوتى العبد شح هالع وجبن خالغ) .

يذكر ابن الجوزي عن أحداث سنة ٤٢٩ ما يذكره ابن السبكي في طبقات الفقهاء .
(في رمضان من تلك السنة استقر أن يزداد في ألقاب جلال الدولة (البويهي) لقب شاهنشاه
الأعظم (أى ملك الملوك) ، فأمر الخليفة القائم أن يخطب له به ، فنفر العامة ورموا الخطباء
بالآجر ! فكتب الخليفة إلى العلماء في ذلك ، وأجاب أبو عبد الله الصيمري : أن هذه الأسماء
يُعتبر فيها القصد والنية . قال الله تعالى : (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً) وقال تعالى :
(وكان وراءهم ملك) وإذا كان هذا في الأرض جاز أن يكون بعضهم فوق بعض ، وليس في هذا
ما يوجب التكبر أو المائلة بين الخالق والمخلوق .

وكتب أبو الطيب الطبري أن إطلاق «ملك الملوك» جائز ، ويكون معناه ملك ملوك الأرض ،
وإذا جاز أن يقال : (كافي الكفاة) . و(قاضي القضاة) جاز (ملك الملوك) ، وإذا كان في اللفظ
ما يدل على أن المقصود ملك الملوك في الأرض زالت الشبهة . وكتب القيمي الحنبلي نحو ذلك .
وذكر محمد بن عبد الملك الحمذاني أن الماوردي (وكان شافعيًا) منع من جواز ذلك ، وكان يلى
وظيفة (قاضي القضاة) لجلال الدولة . فدعا جلال الدولة فضى على وجل يتوقع المكروه ، فلما
دخل عليه قال له : أنا أنحقق أنك لو حاييت أحداً لحاييتي لما بيني وبينك مع أنك أكثر الفقهاء
إيماناً وأوفاهم جاهاً ومالاً ، وما حملك على مخالفتي إلا الدين . وقد قربك ذلك مني وزاد حملك
من قلبي . وقدمتك على نظائرك عندي^(١).

وعلق ابن الجوزي - وهو الحنبلي - على الفتوى بأن قاضي القضاة (الماوردي) على حق لأنه
قد صح في الحديث ما يدل على المنع ، ولكن الفقهاء المتأخرين عن النقل بمعزل .
ويشرح ابن السبكي (الفقيه الشافعي) قول ابن الجوزي ، فيذكر النقل المقصود وهو حديث

(١) العلم أمانة لا تحتل إلا الوفاء . وقد يختلف العلماء ولكنهم يؤدون الأمانة ، ولا يتواطون ، ولا ينتصرون للظلم أو للكفر .
ومنهم السياسيون الذين يبيعون للدولة الناحد والفرص . ومنهم من يأخذونها بالشدّة حتى لا تميل ، لكن الفريقين لا يغيان إلا
النصيحة للمسلمين . إليك مثلاً من خلاف عالِمَيْن يَمْلِكَانِ الفريقيْن :

بعث عمر بن هبيرة إلى العراق ليني مروان إلى الشعبي (١٠٤) المحدث وقاضي الكوفة لعبد الملك بن مروان وسفيره وصديقه
وإلى الحسن البصري (١١٠) .

قال عمر بن هبيرة : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك طلب إليّ أموراً أعمل بها ، فما تريان ؟

قال الشعبي : أنت مأمور والتبعة على من أمرك !

وقال الحسن : إن الله تعالى ينجيك من يزيد ، وإن يزيد لا ينجيك من الله سبحانه وتعالى . لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .
وخرج الحسن وتبعه الآذن يقول له : أيها الشيخ ما حملك على ما استقبلت به الأمير ؟

قال الحسن : قال الله تعالى : «وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم ،
والحسن أعلم بيزيد فهو يدرك ماذا بعث به إلى عمر .

ولقد مر بنا أمر يزيد .

الرسول : (أخضع اسم عند الله تعالى رجل تسمى ملك الأملاك) وحديث (اشتد غضب الله تعالى على رجل تسمى بملك الملوك . لا ملك إلا الله تعالى) . وأضاف أن دولة بني بويه لم تمكث بعد هذا اللقب إلا قليلاً .

ولم يمض جلال الدولة بعد هذا أشهراً وعاش الماوردي (٤٠٥) سنين ضيقاً بكرامة العلم والعلماء وهو مع عظمتهم في القضاء أعظم في الفقه وفي أدب الدنيا والدين وفي تفسير القرآن .

• • •

في هذه الواقعة التي تنطق بانحراف الخليفة والسلطان والإمعات الطائفة من أهل العلم دلالة على مبلغ ما استشرى الفساد في كل وجه . وسيرد التنبيه على خطره على العقيدة الإسلامية بعد قرون في كتاب التوحيد لابن عبد الوهاب وشرحه (١) .

ولئن كان لنا أن نلاحظ أن السلطان التركي لم يفكر في تفخيم دولته إلا وهي تهوى نحو الزوال إخفاء منه لواقع الحال - إن المرء ليشهد كذلك سلطاناً قاهراً دينه القوة ودينه الغلول ! وخلفاء مقهورين لا حول لهم ولا طول ! وعلماء معتمدين يعيشون عمياناً أو متعمين . فإذا اجتهد واحد منهم لم يجتهد ليظهر حكم الله ؛ وإنما كان همه وكبر مناه أن يبرر للسلطان شهوة تتعارض هي وصريح النص أو جلال الواحد القهار .

والنامس دائماً - والمسلمون بوجه خاص - ينتظرون موقف الصديق من الأمراء وكلمة الحق من العلماء ، فما أضيع الأمة إذا فد هؤلاء كلهم أو جلهم !

ولئن قارب الأتراك الخلفاء ليربضوهم بقطارهم . أو أصهروا إليهم ليضيفوا الدم القرشي النقي إلى دم طولوي أو سلجوقي - إن زواج الدولة هذا كان يدير الحديق في شتى الاتجاهات ، ويتغيا أغرب الغايات من أغراض الزواج ! ففي القرن الثالث زوج خمارويه بن أحمد بن طولون بنته قنصر البدي المعتضد ، ليخلق على بني طولون حلة من البهاء ، في حين كان المعتضد يقول : ما قصدت بهذا الزواج إلا إفقار ابن طولون ؛ لأنه يضطر أن يجهزها بما لم تجهز به عروس من قبل ! وكان ما قانه : جهزت بما استفرغ خزائن مصر والشام !

وفي القرن الخامس غلب السلاجقة على البويهيين ، فدخل طغرل بك مؤسس الدولة

(١) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه التوحيد : (باب التسمية بقاضي القضاة أو غيره) : (و الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إن أخضع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله) . قال سفيان بن عيينة : مثل شاعته .

والإمام أحمد بن حنبل يروي هذا الحديث عن سفيان ويرويه بطريق أخرى . ومن قبل ابن عبد الوهاب يقول ابن قيم الجوزية : تحرم التسمية بسيد الناس وسيدة الكل (ست الكل) كما يحرم تسمية ولد آدم ؛ فإن ذا ليس لأحد إلا للرسول ﷺ .

السلجوقية بغداد ، فأطلق الخليفة القائم بأمر الله من حبسه ، وأخذ بلجام بقلته وزوجه بنت أخيه داود سنة ٤٤٨ . ثم تزوج هوبنت الخليفة . حتى إذا ولي السلطان مسعود السلجوقي أجلس الخليفة المتقى على مسند الخلافة ، وبايع له ، ثم أخذ جميع ما بدار الخلافة من ذهب وأثاث وغيرها وانصرف !

وتستمر الحال على هذا المنوال حتى يدخل هولاء بغداد سنة ٦٥٦ بخيانة وزير الخلافة ابن العنقمي ، فيقتل الخليفة ويجزى ابن العنقمي غدرًا بغدر فيقتله !
وكمثل زواج الدولة وخيانة الوزراء ، ومهانة الذين فسقوا عن أمر ربهم لأجلهم . كان رياء السلاطين وتجارتهم بالدين وهوان الأحياء من بني العباس !

لقد ولي واحد من بني العباس فراراً من بطش التتار ، فهبط مصر سنة ٦٦٠ فتلقتهم سلطاتها الظاهر «بيبرس» ، وعينه خليفة قرشيًا ، ليتخذها شعاراً لمشروعية حكمه ، ثم تتابع في مصر تعيين السلاطين لخلفاء رمزين من بني العباس ربما عاشوا من النذور التي كانت تقدم في مسجد يحمل اسم السيدة «نفسه بنت الحسن» القائم الآن بالقاهرة في حي يحمل اسم (حي الخليفة) تخليداً لمكان إقامة هؤلاء الخلفاء حتى سنة ٩٢٣ ١٥١٧ م .

ففي ذلك العام غزا الأتراك مصر ، ورجع السلطان سليم العثماني إلى القسطنطينية حاملاً نفائسها وأعلاقيها وعلمها المهرة ومعهم (الخليفة العباسي) . لتنتهي خلافة بني العباس بمصر ولتبدأ «خلافة» تركية للعثمانيين في إسطنبول تبقى قرونًا أربعة حتى يقضى عليها مصطفى كمال في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة والربع الأول من القرن العشرين للميلاد .

هكذا سخر الأتراك الخلافة في كل العصور ، فأذلوا بني العباس في بغداد ، وشروا بهم متاعاً قليلاً في القاهرة ، وحملوهم في رحالهم إلى إسطنبول ، ليرثهم أحياء ، ورفعوا الشعارات الدينية لإيهام الرعية وغيرها بأن الدولة قد تكامل فيها أمر الدين والدنيا بمجرد رفع الشعار دون الالتزام بمضمونه . واستبدلوا الشكل بالموضوع ، والطقوس بالحقائق ، والبدع بالسنن ، وظواهر الأشياء بجواهرها .

وزاداد الحدار الجماعة والدولة واستمر ، فلم يكذب يتي فرق بين الحكم الوثني وبين حكم المجتمع الإسلامي !

ولم يعد الحرص على الإسلام مشغلة الحكام ، ولا العز على الدين بالنواجد فضيلة المجتمع ، وإنما اشغل الحكام بالتسلط ، وانطوى الصلحاء على أنفسهم ، وأقفل العلماء باب الاجتهاد . وأمنوا في تقليد غيرهم وتعطيل فكرهم . وضعفت عزائم الناس عن التصدي للمسكر ، فحق

عليهم قول رسول الله ﷺ .

(إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده) .
وما كان تعاقب الدول الغازية لهم - واحدة بعد أخرى - إلا أجزاء السماء لهم على أحداث
أحدثوها بأنفسهم .

المنهج السلفي مركز الثقل في الأمة

في إبان هذا الفساد الذي يتزايد قدراً ما تتباعد العصور من فجر الإسلام ويتحكم الشعوبيون
في الأمة ويمكّن الحكام لدوغم على حساب دينهم ، وتسرى القدوة السيئة من الحكام إلى الرعية ،
وتشيع البلبلة من البدع الوافدة من الخارج ، نتجت أمة العرب فحولاً ليس لهم نظائر في تاريخ
الشرائع نذروا حياتهم لتعليم المسلمين فقه الشريعة بتخريج معاني النصوص وتطبيقها وتوجيه اكثور
الدينية والفكرية التي حيي بها المسلمون . وكانت بدع المتكلمين والمشككين والمشعوذين والمتساهلين
محلاً للحرب ، فهي - كالسموم التي تتعاطاها الأمة بيدها - أعجل في التداول والانتشار
والدمار !

في القرن الثاني علا نجم مالك (١٧٩) في سماء الحجاز ممثلاً لعلماء المدينة من محدثين وفقهاء ،
وارتفع اسم أبي حنيفة (١٥٠) ، واقرن بإمامة الرأي في العراق ، وفي أواخر القرن اطلق
محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤) من مكة والمدينة إلى مراكز العلم في بغداد بالعراق وجمع عمرو
في مصر ، ليزيد فقه الإمامين اللذين سبقاه تسديداً ، وليضع أصول الفقه الإسلامي . ويرسي
قواعد الاجتهاد ، ليجري على سنتها المتفقهة أجمعون ، ويسير على الطريق ذاته سائر علماء
المسلمين .

وفي مدرسة المحدثين وحلقة الشافعي نجح أحمد بن حنبل (٢٤١) ، فأصبح إماماً في الفقه
والحديث ، وكان أكثر الأئمة علماً بالنصوص والآثار واستعمالاً لها ولأصول الإباحة والاستصحاب ،
فكان مذهبه أظهر المذاهب يسراً وسعة والتزاماً بالمنهج السلف .

وفي فاتحة المائة الثالثة تجمعت التيارات الفكرية ودعاوى اليهود والنصارى بين أيدي العلماء ،
يواجههم بها مرجفون ظاهرون ومستترون . هيات لهم ساحة الجماعة الإسلامية ظروفًا مواتية . وفتح
لهم الأبواب استهتار الخلفاء والحكام بعد إذ ولي الأمين في خواتيم المائة الثانية ، وألهاه انجون عن
الزنادقة ، ثم ولي المأمون وكان شديداً في التشيع ، عنيداً في فرض آراء المعتزلة على الأمة . حريصاً

على ترجمة كتب الإغريق والفرس والهنود ؛ ففتح الأبواب على مصاريعها لكل قول ، وألزم العلماء ، والسيوف على أعناقهم ، أن يعتنقوا آراء المعتزلة في القول بأن القرآن « مخلوق » . وكان أحمد بن حنبل عالم العصر ، فكان رجل الساعة ، فقال كلمة الساعة .

وسما اسم أحمد بما أصابه من العذاب والاسترهاب ووقوفه في وجه البدع التي أحدثها بعض سواء من المتكلمين^(١) الذين أدخلوا في مجالات العلم والفقه مقولات جدلية قد تحدث البلبلة ، أو من العباد أو الزهاد الذين يخترعون بدعاً لم يصنعها السلف الصالح ولا تختملها النصوص أو المعاني الكلية المستنبطة من مجموع نصوص .

والشريعة معقولة المعنى ، فلا يمكن أن يتناقض صريح المقول وصريح المنقول فيها ، ويتعين على المسلم أن يبادر إلى ما تكلم الله به من اللفظ ، فيتدبره ويعمل بفحواه ؛ كما تلقاه المسلمون عن الرسول وصحبه وتابعيهم فهؤلاء خير القرون . وفيهم قوله ﷺ : (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) قال عمران بن حصين : فلا أدري : أقرنين ذكر بعد قرنه أم ثلاثة ؟ (ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويحسبون ولا يؤمنون ، وينذرون ولا يوفون . ويظهر فيهم السمن)^(٢) .

وعمل هذه الأجيال وبخاصة جيله - عليه الصلاة والسلام - خير عمل . فهو بين أن يكون عن مشاهدة لما صنع الرسول وأن يكون فهماً صحيحاً منهم للشريعة ، وقد كانوا أول من خاطبهم الله تعالى . فعملهم عمل السلف الصالح الذي زاده أحمد بن حنبل تثبيتاً عند جمعه للسنن في (المسند) ليكون مرجعاً يرجع الناس إليه .

وتتابع على الجمع والتصحيح بعده أصحاب الصحاح والمسانيد في القرون التالية ، وتناقلت الأجيال السنة الصحيحة ، وفهمت أسماء الله وصفاته وتوحيده على الوجه الذي جاءت به

(١) المتكلمون - والمعتزلة منهم - أصحاب علم الكلام . وهو علم يتضمن الحجاج بالأدلة العقلية - عن العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع ، فهم يبدعون بالعقل وينتهون إلى إثبات الشرع ، ويردون على أصحاب البدع والمنحرفين في الاعتقاد .

وكثر جدال المتكلمين في القضاء والقدر والخير والاختيار وصفات الله جل شأنه ونظرية الإمامة - الخلافة - وكثر فهم المؤلفون لألفاظ الكتاب والسنة ، واستطار الخلاف بينهم وبين المحدثين ومع المحدثين جمهور الأمة . يقول الإمام الشافعي : (إياكم وانظر في الكلام ، فإن الرجل لو سئل عن مسألة في الفقه أخطأ فيها ؛ كما لو سئل عن رجل قتل رجلاً فقال : دينة بيضة - كان أكثر شيء أن يضلحك منه ، ولو سئل عن مسألة في الكلام فأخطأ فيها نسب إلى البدعة) .

ويروى عنه الربيع قوله : (لو أن رجلاً أوصى بكتبه من العلم وفيها كتب الكلام لم تدخل كتب الكلام في هذه الوصية) . ولما نظره حفص الفرد في دعوى خلق القرآن انصرف حفص كاسف البال يشكو أن الشافعي كفره .

(٢) ويروى ابن مسعود أنه عليه الصلاة والسلام قال : (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يحيى قوم سبق شهادة أحدهم بيمينه ، ويمينه شهادته) . والقرن الجيل ، ثم استعملت الكلمة بعد ذلك بمعنى مائة عام .

النصوص ، وفهمها به الصحابة من النبي ، والتابعون من الصحابة ، دون أن تحيك في صدورهم الشكوك . والله تعالى يقول : (ليس كمثله شيء) فهو بصير وسميع له الأسماء الحسنى - يسمع ويرى لا كما يسمع الناس ويرون ، ويستوى على عرشه - هو - لا كهيئة الملوك أو عروشهم - والكون كله في قبضته بسلطانه وجلالة شأنه .

وعمل العلماء العدول بالسنة وعلموها . فلم يوجد في الأئمة مشبه أو مجلد أو مبتدع . وكثر فيهم الزهد على نحو ما زهد الصحابة والتابعون : لا يصطنعون حيات لتعبد ولا يسفون مستحذات لم يسبق بها الأولون . فإذا أضافوا جديداً فإنما يضيقون فضل عمل لا ينو عن الأصل .

وخلف من بعد هؤلاء الأئمة خلف لم يكونوا أمثالهم ، لكن الأئمة تركوا آثارهم فيهم . ففسروا العلم ، ولم يستطيعوا أن يسكوا بالسلوك عن أن يفعل بما أصاب الأمة من غير الزمان وضمحلالات الإقبال على الجهاد . وهو تزيق من طبيعة الجماعة الإسلامية شرعه الله ليصهر معدنها وليظهرها ويصقلها ، فإذا اضمحل غلبت عليها الدعة وإتار العاجلة والاستهتار بالقيم الدينية في الحياة اليومية ، فعجزت عن أن تجاهد الشهوات في أنفس أفرادها بالقيم الدينية ، أو تنتهي عن شكر إذا ارتكبه السلطان أو قارفته الجماعة .

ثم أخذ التخليط الوثني سبيله إلى المجتمع على أيدي غزاة غلاظ القلوب من ديامبريين ، وسامانيين أو خراسانيين وتتار وأتراك يبيعون للدين نصرة ، لكنهم إذا أسلموا بقي في فهمهم للإسلام آثار من دياناتهم أو مجتمعاتهم السابقة ، تدخل في المجتمع المغلوب على أمره بدعاً يقبل عليها المقهورون . والمسلمون أمة صنعتها شريعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وتؤمن بالله . ويوم يخرجون على قانونهم جبهة أو خفية يفقدون التمكن والتوازن . ويدلون للحكام أو الأغنياء أو الأقوياء ، وينساقون لتقليد المزخرفين والمزوقين فلا يتأهون عن منكر فعلوه ، وتنزع الحياة بين حياة المسلم وعقيدته ، وتحدرد الجماعة إلى مستوى أدنى من الإسلام ، فذلك يوم لا يصدق عليهم فيه أنهم مسلمون . وتكتب عليهم المزامم من أنفسهم ثم من الخارج .

والمزامم من أنفسهم معروفة : فهم غير صحيح للدين أو تراخ في التمسك بتعاليمه من أمره ونهيه وأدبه وإرشاده ، وانقطاع عن الجهاد وامتناع عن الاجتهاد وتقليد غيرهم في الدين ، وتحويل للعبادة الصادقة إلى طقوس أو شكليات ! . وأنواع عيش من يوم ليوم بين الرجاء الذي لا يعملون له واليأس الذي يرين على قلوبهم ، ورضاهم بأن يكونوا مع الخوالب . !

ويسلم جيل مستئثس مستسلم نقائصه إلى جيل أشد ابتعاداً من الأصل وافتقاراً للأمل . وكلما استحکم اليأس انقطع العمل الجاد الذي تحيا به الأمم ، ونما التواكل الذي يقتل العزائم ، وركن

الناس إلى خرافات تبيض وتفرخ في أفهام الخاصة وأوهام العامة، وتمتد جذورها في ثرى المجتمع وترتفع فروعها، فيستظل بها العلماء والأمراء. ويسيطر الخوف على الناس كافة من غير سبب سواء من الأشخاص أو الأشياء أو الأفكار - فترى الرجال أشباه رجال والعلماء صور علماء ! وفي هذا الخليط من الوسوس والرزائل يضمحل شأن العلم، ويلتحق العلماء بمواكب السلطة، ويوشك العقاب أن يعم الأمة، فلا يصيب الذين ظلموا خاصة.

والهزائم من الخارج وليدة هزائم الداخل : فهذه الأمة لا تدمرها العوامل السياسية أو الحربية أو الجغرافية أو تكاثر العدو أو ظهور غيرها من الأمم على وجه كرة الأرض، أو ظهورها على المسلمين أنفسهم، فقد طالما أسلم المنتصرون، واهتدوا بهدى المسلمين. وإنما تقهرها الآفات التي تصيب نسيجها الذي نسجت منه، وهو فضائل دينها، فتعجز عن المقاومة وربما عن مجرد البقاء !

* * *

رفع الإمام أحمد في حياته (١٦٠ - ٢٤١) راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقاوم « بدعة » خلق القرآن وتناقلت الأجيال قوله (هذا زمان مبادرة، هذا زمان عمل)، ليعلم المسلمين أن كل زمان إنما هو زمان مبادرة وزمان عمل. وليس العلم فيه إلا طريقاً أوفريقاً للعمل^(١) وقدّم في سبيل ذلك عنقه لسيف المأمون وهو ينتظره شاهراً سيفه ليقتله بيده فحملوه إلى القتل آلاف الأميال، مقبداً في الحديد، فقتل الله المأمون وأحيا الإمام !

ودخلت عليه سنة بعد سنة وهو سجين ينتظر القتل بيد المعتصم، فأُنزل به من العذاب على العقابين ما يتناقله التاريخ، ومزقت السياط جسده، فلم يطلقوه إلا بعد أن فقد وعيه ! ولما خرج من السجن لم يتهاون مع الذين تهاونوا، لكيلا يعرف عنه تساهل مع من تساهل في « البدعة » وإن كان أقرب المسلمين إلى قلبه .

دخل عليه يحيى بن معين^(٢) يعودُه إذ مرض، وكان قد قال بخلق القرآن تقيّةً - فازورَ المريض

(١) ولد أحمد في عهد خلافة المهدي الذي كتب إليه سفيان الثوري يقول : (لم أعمدت أجنالك الظمة دون بابك وسترك . يظلمون الناس ولا يصفون ، ويشربون الخمر ولا يحدون الشارب ، ويوزنون ولا يجلدون الزاني ، ويسرقون ولا يقطعون يد السارق !) .

وكان حكم المهدي مع هذا من أصلح الحكم في الدولة العباسية - نسيّاً - ديناً ودنياً ، ومن بعده تابع الانحدار في الدفاع عن الدين والانتساع في طلب الدنيا ، وانقطع حساب الزنادقة وألغى الديوان الذي أنشأه لمعاقبتهم .

(٢) صحب يحيى أحمد عظيم حياته ورحل معه في عهد الطلب حتى صار علماً في علوم الحديث وكتبه مراجع أصلية فيها ، وكان أبوه من كبار عمال الدولة . خلف له خمسين ألف درهم أنفقها في سبيل العلم ، وتزهد . وهريقون :

(أريد الله منا أن نكون مثل أحمد ، والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد) . ويقول : (إن الله على نبي عبد الله من نبي نوح نوح) وأحمد يقول في علمه : (كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فهو ليس بحديث) ولا يناديه باسمه بل يقول له : (يا أبا زكريا) فلقد كان يكبر أحمد بسبع سنين .

عن زائره وأدار وجهه كي لا يراه أو يحدّثه . فتكلّم يحيى عن الإكراه الذى يأذن للمكره أن يتقى الأذى بقول لا يعتقد صحته ، وأشار إلى حديث عمار (بإباحة القول تقية) ، فتابع الإمام ازوراره ، وخرج يحيى ، فقعّد بالباب منكسر النفس ، ويحيى من أكابر المحدثين فى التاريخ الإسلامى - حتى إذا خرج إليه أبو بكر المروزى تلميذ أحمد وخادمه سأله : ماذا قال أحمد بعدى ؟ فأجاب أبو بكر : قال (يحتج بحديث عمار مررت وهم يسبونك فنهيتهم فضرّبوني) وأنتم قيل لكم : (نريد أن نضربكم) .

يقصد أن الأذى لم يقع فى حين أنه وقع بالفعل فى حديث عمار ، فالاحتجاج بالحديث حجة داحضة .

قال يحيى : مرّيا أحمد غفر الله لك ، فما رأيت تحت أديم السماء أفقه فى دين الله منك ^(١) . وعلم أحمد المسلمين درساً خالداً فى الأمر بالمعروف والتصدى « للبدع » علا به اسم الخنابلة بعده ، وارتفعت أصواتهم مشددة فى كل بدعة ، فنسب التشدد فى الدين إلى الخنابلة . وما هى إلا الخنيفة السمحة كلما انتهكت حرمة الله كانت لها غضبتها .

والخنيفة يسرّ كلها . ما خير صاحبها عليه الصلاة والسلام بين أمرين أحدهما أيسر إلا اختار ما هو أيسر ، لكنها تجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين على الجماعة ، إذا لم تقم به أثمت كلها ، لتضامن فى الفضيلة . فيتعدد المكلفون ويتيقظ المقدون وتتويع الوسائل ويتضافر الآمرون بالمعروف ويسر الإصلاح .

وحق إبداء الرأى أو حرية الرأى منصوص عليه فى القرآن والسنة فى صورة « واجب » على الحكام والمحكومين فى غير موضع ، ومن أظهرها إيجابه تعالى على رسوله أن يستشير وإن أخطأ المستشارون حيث يقول : (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر) .

والله تعالى يقول : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) . فالطاعة لله والرسول فريضة محكمة . ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وليس للفرد أن يسكت عن إبداء رأيه ، فهو بعض الأمر بالمعروف المفروض عليه . وهذا « الحق » أو « الواجب » أحد المسلمات فى الإسلام قبل أن يعرفه القرنجة بألف وثلاثمائة عام فى نظمهم البرلمانية ^(٢) . يقول عمر : (لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها) .

(١) فصلنا الكلام فى محبة خلق القرآن وكتابنا أحمد بن حنبل إمام أهل السنة طبعه دار المعارف فى الباب خامس

ص ٤١٤ إلى ٤١٤ .

(٢) لم يصل الأوروبيون إلى هذا الحق إلا بعد إقامة النظام النيابى ، فى القرن الثامن عشر للميلاد والثالث عشر للهجرة . و .

والحكم للدين . فإذا أساغت الجماعة المنكر أو سككت عن إنكاره أو تقاعست عن إبداء رأيها لم تعد هي « الجماعة » ولم تكن لها الطاعة .

يقول ابن مسعود : (الحق ما وافق الجماعة وإن كنت وحدك) ويحليه قول نعيم بن حباد (إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة وإن كنت وحدك) ولما وقف أحمد بن حنبل موقفه الخالد في وجه المأمون كان أحمد - لا خليفة المسلمين ولا الكتبة التي تبادرت إلى مرضاته - ممثلاً لجماعة المسلمين لأن الحق كان معه .

وفي موقف أحمد يقول ابن قيم الجوزية بعد قرون خمسة : (لقد شذ الناس « كلهم » إلا نفرًا يسيرًا زمن أحمد كانوا هم الجماعة) .

ومن نقائص الجماعة في عهد أحمد بن حنبل ومواقفه منها تتشكل صورة مصغرة لما سوف ينجم في المجتمع من بدع تزداد تفاقماً قدر ما يزداد التخلف .

وأحمد يروى عن رسول الله ﷺ : (كل محدثة بدعة . وكل بدعة ضلالة) ، ويروى عنه : (من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد) .

ولم يرو أحمد حديثاً إلا عمل به ، فحياته درس في دفع البدع وسد الذرائع .

البدع

البدعة شيء يشبه أن يكون من الدين وهو ليس منه ، سواء أكان بالصورة أم بالحقيقة في الشكل أم في الموضوع . وهي محرمة أو مكروهة وفق ما تحدته من بلبلة ، وقدر قوة شبهها بالأصول وضعفها . والمكروه منها يجب العدول عنه سداً للذريعة .

وكثيراً ما توجد البدعة في كفيات بعض المندوبات وما تميل إليه الأنفس كالذكر والتلاوة بما يدخل عليها البعض من كفيات سلوكية على نحو ما يصنع بعض المنتسبين للطرق ليروجوا طرائقهم . ولا مراء في أن الفاصل بين الأصل والبدعة هو عمل السلف بالأصل ومتابعة الخلف له ، ففي عملهم عصمة للأمة بتتابع السلف عليه . وشهادة الأصل له واستمرار العمل به . والسلف هم علماء أصول السنة والعاملون بها أعظم العمل ، والقرون - الأجيال - الثلاثة الأولى خير القرون ، وأواخر القرن الرسول . (رسول الله ﷺ) كما يقول الإمام أحمد - هو المعبر عن كتاب الله الدال على

ذلك الكلمة التي بردهم الأح : عن جون سيم : مل : (لم كان للناس جميعاً لا واحداً منهم رأى . وكان لهذا الواحد رأى مختلف لم يكن للناس جميع حق في أسكات صوت ذلك الواحد - كمثل ما لم ليس لهذا الواحد - وكانت السلطة في يده - أن يسكت أصوات الناس جميعاً)

معانيه . شاهده في ذلك أصحابه الذين ارتضاهم لنبه واصطفاهم له ، فكانوا أعلم الناس برسول الله ﷺ وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم (وشاهدتهم وتعلم عليهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم .

ومن المذاهب ما يعتبر عمل أهل المدينة وعلمهم أصلاً في أصوله أو يعتبر لإجاعتهم القوة لمكانة « السابقة » في الإثبات . والأمر أكد في الإثبات إذا نواتر وعم واستمر عليه العمل .

أما ما لم يفعله السلف - مع ثبوت أصله - فالرأى من قول مالك وقول مدرسة أبي حنيفة أنهم لم يفعلوه لأمر ثبت عندهم ، وهم أحرص الناس على الخير وأعلمهم بالسنة .

رأى ابن مسعود - معلم الكوفة - قوماً يجتمعون بعد العشاء ويذكرون الله جماعة رافعين بالذكر أصواتهم فقال لهم : (يا الله ! لقد جئتم « ببدعة » ظلاماً ، أولقد فقم أصحاب محمد علماً) .

والشافعية يرون أن كل ماله مستند من الشرع فليس ببدعة وإن لم يعمل به السلف ، فقد يرجع تركهم له إلى أسباب محلية أو وقتية أو لا يثار ما هو خير منه ، أولعله لم يبلغهم جميعاً .

ومن ذلك يختلفون في الذكر جهراً أو جماعة ، وفي الدعاء كذلك . وحجة الشافعي أنه قد ورد الترغيب في أصله ، وإن لم يرد عن السلف فعله ، فالحجة عنده أن الشرع يدعو إلى القيام بالأمر

وإن لم يبين طريق القيام به ، فهو مباح .

ومن البدع ما يكفر صاحبه ومنها ما يكتفى بتبديعه ، ومنها ما هو صريح ، وهو ما ليس له أصل شرعي في مقابلة أمر ثابت شرعاً واجب أو مندوب ، فالبدعة عندئذ تمت سنة ثبتت ،

أى تحارب حقيقة إسلامية ، مثل ادعاء قوم أن بعضاً يعرف الغيب استناداً إلى الفراسة . ومن البدع ما هو محل خلاف ، فالانتهاء عنه أنجح للمرء وأنفع للجماعة .

وخطر البدع كبير لتسربها في المجتمع الرخو الهشيش ، وكثيراً ما انتهت بأفرادها أو جماعته إلى قبول ممارسات تناقض الدين ، أو معتقدات زبوف يصطنعها بعض للتظاهر أو السيطرة . !

والصغير من البدع يؤدي إلى الكبير . وكثيراً ما تعاظمت الصغائر وتعددت وتنوعت ، فصار لها خطر الكاثر ، وقل أن يُقدم الفرد أو المجتمع على الكبيرة بغتة دون أن تمهد السوابق الصغيرة

أو الشائنة لذلك المحجوم ، فما بالك بالبدع التي تعم بها البلوى وتشوه وجه المجتمع ، ويتعين العدول عنها إبقاء على سلامة العقيدة وسلوك الأفراد .

وكثيراً ما يكون المنكر الصغير خروجا على واجب واحد ، لكن فيه تهوينا أو تحريضا للخروج على واجبات كثيرة .

والإبعاد من الجادة إذ يبدأ بخطوة واحدة يزداد قدر ما يزداد الانحراف . ومن القطرات بدايات السيل العرم .

ومن ذلك تشدد الأئمة لاتباع الأصل ، لأنه الدليل الشرعى .

• • •

أحمد رضى الله عنه لا تعجبه الصلاة فى جلود الثعالب .

ولا يتريا بزى النساك ، فلم يلبس الخرق ، بل كان يأتزر ويعتم فوق القلنسوة . وليس ثوبه غليظا ولا رقيقا ينكر ، وكان فى غاية النظافة .

ولا يرى أحمد شد الرحا لزيارة القبور .

ولا يرى بناء القبور مرتفعة بل يقول (مثل قبور أحد) .

وسئل عن القراءة على القبور : هل يحفظ فيها شيئا ؟ قال لا . وإن كان الشافعى لا يرى بها بأسا ، وكذلك إبراهيم النخعى .

ولا يرضى أحمد عن سياحة الطوافين بالبلاد يظهرهم النسك بأسألمهم البالية .

فإذا نسبت إليه كرامة (بالمعنى الغيبى) حاج وماج :

فى ذات يوم مسح تلميذه على يده ثم مسح على يده (بدن التلميذ) ، فنظر إليه مغضبا غضبا شديدا ، وجعل ينفض نفسه ويقول : عمن أخذتم هذا ؟

ولما طلب إليه رجل أن يدعو لأمه - وهى زمنة - أجاب مغضبا : نحن أحوج إلى أن تدعولنا . وهجر الحارث بن أسد المخاسى (٢٤٣) وهو شيخ كثير من المتصوفة . كان يعقد مجالس للذكر فى داره ودور أصحابه . فسمع أحمد بها ، فطلب أن يراهم من حيث لا يرونه ، فلما رآهم كأن على رؤوسهم الطير ، ومنهم من يبكى ، ومنهم من يزرق - بكى أحمد فى محبته وغشى عليه من البكاء . فلما انفض المجلس قال لصاحبه : ما أعلم أى رأيت مثل هؤلاء القوم ، ولا سمعت فى علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل .

وأضاف إمام المسلمين : ولا أرى لك صحبتهم .

وأحمد ينهى عن التهليل ورفع الصوت بالقراءة ، ويعتبر ذلك بدعة محدثة . وكان الشافعى من قبل يقول : (تركت شيئا بالعراق يقال له التغيير أحدثه الزنادقة يصدون به عن القرآن) وصلى أحمد خلف إمام يجمع ثوبه إذا سجد بيده اليسرى ، فلم يقل له شيئا ، ولكن قال لصاحب محواره : (قال النبى ﷺ : إذا قام أحدكم فى الصلاة فلا يكف شعرا ولا ثوبا) . ومضى .

وسأل الرجل صاحب أحمد عما قال له ، فأخبره وأردف قائلا : ما أحسب المعنى إلا لك ! وأحمد فى هذا كالحسن البصرى دُعِيَ إلى عرس فجاء بجام من فضة فيه طعام ، فتناول الطعام فقلبه على رغيث فأصاب منه . فهذا نهى فى سكون عن استعمال آية الفضة .

وما هو إلا منهج النبي عليه الصلاة والسلام ، إذ كثيرا ما أصدر أمره بطريقة غير مباشرة ، كما كان يقول للناس : (أقبلوا ذوى الهيثة عثراتهم) .
وأم الدرداء تقول - وكانت من العلماء - من وعظ أخاه سرا فقد زانه ، ومن وعظه علانية فقد شانه .

وآفة النصيح أن يكون جهاراً .
ويقول أحمد : النياحة من فعل الجاهلية .
ولما سئل عن الرجل يدخل ليفعل الميث ، فيسمع صوت النوح : أيدخل لينفسه ، هم ينوحون ؟ فأجاب : نعم ، ولكن ينهاهم .
وسأله تلميذه حرب بن إسماعيل : الرجل يسمع النوح فيترقق . قال : « ما أدري . وروى حديث سعيد بن صالح : رأيت أبا وائل^(١) يستمع النوح ويبكي .

* * *

وإذا جاز للمسلم أن يقتل الكفار حتى يقتل جاز له ذلك أيضا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن ذلك قول الغزالي : إنه يستحب له أن يعرض نفسه للضرب بل القتل إذا كان لفعله تأثير في رفع المنكر أو كسر لجاه الفاسق أو تقوية لقلوب أهل الدين .
روى أبو بكر المروزي - تلميذ أحمد وخادمه - أنه ذكر ابن مروان الذي صلب في الأمر بالمعروف . فترحم عليه وقال : قد قضى ما عليه .

لكن الموعظة الحسنة للسلطان تقتضي اختيار الزمان والمكان والأسلوب والرجل . كان زهدي أكثر بني العباس يسرا وورعا وأشدهم على أعداء الدين بأسا ، وفي إحدى حجاته طلب أن يغلي له المطاف حين طوافه بالكعبة ، فمنعه من ذلك المحتسب ، فخضع له ، في جرار الكعبة ، ثم حبسه وحبس معه فرسا شموما حتى قتله الفرس !

ولقد وعظ سفيان الثوري أبا جعفر المنصور في مواجهته حتى أوصاه حاجبه بقتله ، وكان مع ذلك يوصي الأمرين بالحكمة ويحشى أن يسدر السلطان في غيه . ولقد يكون السلطان ميثوبا منه .
سأله سائل : ألا تأتي السلطان فتأمره ؟ فأجاب إذا انبثق البحر فن يسكره^(٢) !

والمؤمن يتصر لله لا لنفسه إذ يعظ غيره ، فالانتصار لله تعبد ، والانتصار للنفس حب للمحمدة أو خوف للمذمة أو عجب بالذات أو شهوة للشهرة . وهكذا كله غير محمود ، لأن

(١) جد سفيان الثوري وكان من خيار زمانه زهادة وعبادة .

(٢) يسده .

الإرادة فيه لم تتمحّص لله وحده . وإذا وجد شرك خفى في العمل بطل (١).

وأحمد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتحمل مسؤولية الأمر ، ويخاف على الناس ويوجب السر عليهم ، ولا يشرك السلطان إلا في الشدائد . ويؤثر الاستعانة بالجماعة : كل أولئك في مزاج موفق بين سياسة الناس في دنياهم وجمع كلمتهم على استنكار المنكر .

واستخدام السلطان محطرة لا بتداره بالبطش في مواقع كثيرة قد يكون للمنطق فيها موضع .

والسلطان مُسلط عليه الكثير من فوقه ، ومغلوب على أمره بكثيرين تحته ، وبعوامل شتى منها الشهوة والصولة والاستعلاء ، فالاستعانة به لا تؤمن مغبتها ، وقد يكون سكوته إذ يُستعدى سببا في سوء فهم العامة أو تمكيننا للضلال بالسلطة ، وفي الاستعانة بالسلطان تبليغ عن المنكر تمتنع بعده الشفاعة وتعلن الفضيحة . وكثيرا ما كانت درّة السلطان قاتلة ، وكانت فضيحة الآثم مدعاة ليتولى كبره فيتردى في وزره ، وكان أخذه باليسر أنجح للنصحاء وأفلح للمستصح .

سئل أحمد عن جار يرى منه الفسق والدعارة : أرفعه إلى السلطان ؟ قال : إن علمت أنه يقيم الخلد فارفعه . ونبه على أن الأمر جد فأضاف : « كان لنا جار فرفع إلى السلطان . كان قد تأذى منه جيرانه . فرفعه فضر به ثلاثين دره فمات » .

ووضع السيف في موضع الدى مضرك وضع الندى موضعه : سألته تلميذه يعقوب بن بختان عن القوم يؤذونه بالغباء فأجاب : تقدم إليهم وانهم واجمع عليهم قال يعقوب : أأستعين بالسلطان ؟ فأجاب الإمام : لا . قال يعقوب : فادع الصلاة ؟ قال الإمام « لا تضع المسجد » فهو ينتهى بالمسجد ويبدأ الفتيا بعدم الالتجاء إلى السلطان أخذاً لكل شيء بقدره . ويرى أن

(١) روى أحمد أن رجلا جاء إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال له : رأيت رجلا غزا بتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لا شيء له ! فأعاده ثلاث مرات يقول له الرسول لا شيء له . ثم قال : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا له .

وسئل عن الرجل يقاتل من أجل أخيه حمية وعن رجل يقاتل لا يدفعه لقتال إلا الشجاعة والمروءة ، وعن رجل يقاتل للرياء والنظاير ! فقال ﷺ : (من قاتل لشكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) .

ويروى عنه ﷺ : (أن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد ، فأتى به فرفعه نعمة فرفعها ، قال فما عملت فيها ؟ قال : قتلتك حتى استشهدت قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جرى . فقد قيل : أمر به فصح على وجهه حتى ألقى في النار) .

وروى مالك أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب عليه ، فصاح به فلم يجبه ، فاسترجع رسول الله ﷺ وقال : (غلبنا عليك يا أبا الرع) فقالت ابنته : والله إنى كنت أرجو أن تكون شهيدا فإني قد قضيت جهازك ، فقال رسول الله ﷺ : (إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته) .

يجمع الناس ليروا المنكر ويشتركوا في إنكاره ويصلحوا الفساد وهم أجمعون ، فيصلحون ويصلحون^(١).

وإذا أعلن الفاسق فسقه أو أخطأ خاطئاً في العبادة ، فلا وجه للصبر عليه . كانت لأحمد مساكن يؤجرها قبله بين المغرب والعشاء عن ساكن له أنه طلق امرأته ، وأنها تقيم معه . فخرج إليه وصاح به : تطلق وتقيم ؟ وأمره أن يتحول عنه وقال : انتقل .
وصلى أحمد إلى جنب رجل لا يتم الركوع ولا السجود فقال : يا هذا ، أقم صلبك في الركوع

(١) وسأله سائل . إذا أمرت بالمعروف فلم يته فإذا أصعب ؟ قال : فدعه . قد أمرته . وقد أنكرت عليه بسناك وجوارحك . لا تخرج إلى غيره ولا ترفعه إلى السلطان يتعدى عليه .

كان أصحاب عبد الله : إذا تلاهى قوم قاتوا : مهلاً بدارك الله فيكم . مهلاً بدارك الله فيكم . ويقول أحمد في موضع آخر : أما السلطان فلا . إذا رفعهم إلى السلطان خرج الأمر من يده ، أما علمت وصية عتبة بن عامر ؟

أما أصحاب عبد الله فأصحاب ابن مسعود حبيب النبي ﷺ سادس السبعة الأولين في الإسلام ، وإليه ترجع مدينة الكوفة التي نتجت أبا حنيفة .

وأما عتبة بن عامر فصحابي ولي مصر لمعاوية سنوات . وهو القائل إذ أخبره رجل أن له جيراناً بشريون الخمر وأنه داع لهم الشرطة ليأخذوهم . (لا تتعل ، ولكن عظمهم وتبدهم) ففعل فم ينتها ، فعاد إليه يريد تبليغ الشرطة فقال عتبة . ويحك ! لا تتعل ، فإني سمعت رسول الله يقول : (من ستر مؤمناً فكأنما استجبا مودة من قهرها) .
وشكا رجل إلى أحمد جاراً يؤذيه بمنكر . فقال له : مره بينك وبينه ؟ قال : أمرته مراراً وكأنه يصحك ! قال الإمام : وأى شيء عليك ؟ إنما هو يصحك على نفسه ! أنكر بقلبك ودعه .

وإذا لم يقم امرؤ على الإنكار على صاحب السطوة وقوى على الإنكار على ضعيف فعليه ألا يسوى بين الاثنين ، فيذك الإنكار على الضعيف من أجل ضعفه : أى عليه أن ينكر على من يتقدم على رده عن المنكر ولا أصبح الضعف قوة تاذن بارتكاب المنكر وتخلطت قوة المظل حجة على إجازة الباطل ! يقول أحمد : ينكر على الذى يقوى أن ينكر عليه .
سئل أحمد عن بيع اليهودى والنصراني الخمر ظاهراً : فهل على المسلم شيء ؟ فقال : إذا كان ذلك من السلطان فيس يتعرض هو .

قيل : فإذا رأى مسلماً قد حمل شيئاً منه ؟ قال : المسلم يعظه . فإن أبى أهرقه .
وأكثر الناس قادرين في أكثر الظروف على الإنكار على أكثر المنكرين ، والتهى عن المنكر يشد ظهور المؤمنين وما أخرجهم إلى شد ظهورهم - ويرغم أنف المفاقين . وهم كثر .

يقول أحمد في عصره ، وشتان ما عصره ونعصور بعده ، إذا رأيت اليوم شيئاً مستويماً فتمجوا !
ويقول : يأتي على الناس زمان يكون المؤمن فيه يئام كالحففة ، ويكون المنافق يُشار إليه بالأصابع ! فقيل له : كيف يشار إلى المنافق بالأصابع ؟ فقال : صبر الأمر فضلاً : المؤمن إذا رأى امرأ بالمعروف أو شيئاً عن المنكر لم يصبر حتى يأمر وينهى . يعنى قالوا هذا ففسول ! والمنافق كل شيء يراه قال بيده على فقه (وضعها على فقه علامة على الصمت) ، فقالوا : نعم لرجل ! وإذا كان المعروف دائماً موضع فالأمر به يحتاج إلى كيس الكيس ، أو دهاء الدهى . ومن الناس من ختم الله على قلوبهم وألغى الغشاوة عن أبصارهم . ومن الناس من لا يرفع النصح فيهم .

وفدماً قال يحيى بن كثير : موعظة الجاهل كالمغنى عند رأس الميت !

والسجود وأحسن صلاتك .

وسئل عن رجل يضرب الطنبور والطبل أو نحو ذلك : أيوجب أن يغير؟ قال : أوجب . . إن غير فله فضل ؛ فسئل فيرفع إلى السلطان ؟ قال : تخافه ؟ قال : نعم ؛ قال : أنكره بقلبك . وليعلم الله ذلك منك . روى ذلك عن عبد الله بن مسعود .

فإذا انكشف المنكر فلا حرمة له : يقول أحمد : لا يمر بالخمركمشوفا . قيل له : فإذا كان مغطى ؟ قال : لا تتعرض له إذا كان مغطى .

سئل عن الرجل يرى القنينة (بظن) أن فيها مسكراً ؟ فقال : دعه^(١) وسأله أبو بكر المروزي - لو رأيت الخمر مكشوفة في قنينة أو قربة ترى أن تكسر أو تصب ؟ قال : تكسر . وسأله عن الطنبور إذا كان مغطى ؟ فأجاب : إذا ستر عنك فلا .

يقول أحمد لمن سأله : وإن كان العود من وراء الثوب وهو يصفه أوبيئه ؟ لا إذا كان مغطى فلا أرى له ذلك .

ومن مجموع النصوص والآثار يمكن الترخيص في الغناء في العرس والعيد غناء الرجولة أو المناسبة الصالحة الذي لا يترجم الفساق بمثله :

أخرج النسائي عن عامر بن سعد : دخلت على قرظة بن كعب وأبى مسعود الأنصاري في عرس وإذا جوار يغني فقلت : أي صاحب رسول الله ﷺ وأهل بدر يفعل هذا عندهم ؟ فقالا : اجلس فاسمع معنا ، وإن شئت فاذهب ، فإنه قد رخص لنا في اللهو عند العرس . وفي تحريم غناء النساء قال الرسول (لا تشتروا القينات ولا تبيعهن ولا خير في تجارتهم وثمنهن

(١) دخل أحمد ويحيى بن معين وأبو خزيمة دار خلف بن هشام البزار يطلبون حديثه . وهو من كبار الحديثين وله قراءة اختص بها ، لكنه كان يشرب النبيذ - أخذوا من أباحه من العراقيين كالثعبي والنخعي وأبى حنيفة وإن لم يشرب منهم أحد قط - فوجدوا بين يدي خلف قنينة نبيذ . وأقبل أحمد يسأله ، وحول ظهره إلى القنينة ، حتى إذا أزمعوا الانصراف سأله خلف : يا أبا عبد الله ، أي شيء تقول في هذا ؟ - يقصد القنينة - قال أحمد : ليس ذلك إلني ، ذلك إليك ! قال خلف : كيف ؟ قال أحمد : قال النبي ﷺ : كلكم راح وكلكم مشول عن رعيته والرجل راح في منزله ومشول عما فيه ، وليس للخارج أن يغير عن الداخل شيئاً .

ولما خرجوا سكب خلف خابيتين ، وعاهد الله على ألا يذوقه حتى يعرض على الله عز وجل .
ونوثق أحمد لخلف شرب ثم لم يشرب - قبل متاب خلف أم بعده - مظهر لاحترام الاجتهاد والاختلاف فيها هو محل للخلاف .
يقول حاتم الأصم من فقهاء المعتزلة وزعماء المتصوفين : (حدثت أحمد فبمس شرب النبيذ من أهل الكوفة ، فقال : (هذه زلات لا تسقط عدالته) ، وإنما قصد أحمد أب زلات رأى لاسقطات في لدين .
ويقول ابن تيمية : (فأمر من فعل محرماً بتأويل فلا ترد روايته في ظاهر المذهب) .

حرام) وفي مثل ذلك نزلت (ومن الناس من يشتري لهو الحديث . . .) (١) .
وأحمد يرى أن الجارية التي تقرأ القرآن بالألحان إذا بيعت بيعت ساذجة : أي ليس لها
هذه الخصيصة .

وسئل عن قراءة القرآن بالألحان فكرهها وقال : « ما يعجبني . هو محدث » وقال « بدعة »
لا يسمع . وأنكر الأحاديث التي يحتاج بها في القراءة بالألحان .
أما حديث (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) فقليل في معنى (يتغنى) قول سفيان بن عيينة
(يستغنى) وقال الشافعي : (إنما هو يتحزن ويترنم ويقرؤه حدراً (دون تمطيط) ، ونحرباً .
وبعض يقول : إن رفع الصوت بالقرآن هو التغنى به .
وأى هذا كان يتعين ألا تخرج طريقة الأمر بالمعروف عن المعروف . والله يقول (ولا تجسوا) .

فالمختصة لا يتسلقون الحيطان ولا يتجسسون منها عظم المنكر إذا كان خاصاً كالزنى والخمر ،
فلا يجوز التجسس على ما خفي من هذه القاذورات ، لأن ضررها مقصور على أصحابها . ومن
ذلك قول أحمد بن حنبل (ما غاب فلا تفتش) وإنما يجوز التجسس فيما يتصل بحياة المسلمين
كغش الدواء والشراب والطعام والتآمر للقتل .

لم يكذب الإمام يقضي نجبه حتى أصبحت الحنبلية شعاعاً للتمسك بالدين ومقاومة البدع .

(١) سئل أحمد عن حديث عن عائشة فيه جوار يتغنى : إبش هذا الغناء ؟ قال : غناء الركب أتيناكم أتيناكم .
وهو يروى في المسند :

عن عائشة رضي الله عنها : كانت عندنا بئيمة من الأنصار فزوجناها رجلاً من الأنصار ، فكتبت فيمن أهداها إلى روحها
فقال رسول الله ﷺ : (يا عائشة ، الأنصار فيهم غزل لما قلت ؟) قالت : دعونا بالبركة ، لم انصرفوا .
قال : أفلا قلتم :

أتيناك أتيناك فحبوب عجبك
ولولا الذهب الأحمر ما حلت بوردك
ولولا الحبة السمراء لم تمن عذاربك

ولما سئل أحمد عن لعب الحبة في المسجد لم يجب (الحديث أخرجه أبو داود) .
ويرى أحمد أن الدف لا يعرض له في الإملاء والزفاف بالغاناء . ويستم إذ يعلم أن أبا بكر صوّى دهب يغزل ميتاً فجدد دفاً
فكسره .

قال أحمد : يكسره في مثل نليت : أي أنه لا يرى للدف محلاً حيث تلتقي الذنب والآخرة . وهم النقال : إذ ضرته بالدف
فلا تضربوا إلا بتسحيم وتكبير . ويرخص به في النكاح إعلاماً به ، وهو علم أن رسول الله ﷺ مر بجوار من بني النجار وهم يضربون
بدف لهم ويقفون :

نحن جوار من بني النجار يا جدًا محمد من جد

فقال : (الله يعلم أي أحبكم) .

وشجرت الفتن بين الحنابلة وبين الآخرين ، فشكاهم صاحب الخبر إلى الخليفة . فكتب المتوكل إلى صاحب الخبر : (لا ترفع إلى شيئاً من أخبارهم ، وشد على أيديهم ، فإنهم وصاحبهم من سادة أهل محمد ! وقد عرف الله لأحمد صبره وبلاءه ورفع علمه أيام حياته وبعد موته ، وأنا أظن أن الله تعالى يعطى أحمد ثواب الصديقين) .

وعمرت المساجد بالجمع والجماعات ، واختفى المفطرون في رمضان ، وتحجبت السفارات ، وامتنعت نياحة الناحات ، وانقطع مثنى الرجال والنساء في الطرقات ، وحمل أصحاب أحمد على أصحاب البدع وبخاصة من يدعون دعاوى الصوفية . وشغب علام خليل (٢٧٥) عليهم العامة فاتهمهم بالزندقة ، وسعى عند والده الخليفة حتى سجن سبعون رجلاً منهم وهرب بعضهم وحوكم بعض آخر وقضى القاضي ببراءتهم .

وفي القرن التالي كان علي بن خلف البربري (٣٢٩) شيخ الحنابلة ، ولما مات أمر الخليفة بدفنه إلى جواره .

يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٣٢٢ (عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكسبون دور القواد والعامة ، وإن وجدوا نبذاً أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوه وكسروا آلة الغناء . واعترضوا في البيع والشراء ومثنى الرجل مع النساء والصبيان . فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه . من هو ، فإن أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة . فأرهبوا بغداد) .

والسفظة غيور لا تقبل الشراكة ، وواجبها ألا تأخذ الناس بالظنة . وهذا وقعت الواقعة بين الخلافة والحنابلة فأصدر الخليفة الراضى توقيعاً عنيفاً يقرأ عندهم ، وركب صاحب الشرطة ونادى في الناس : لا يجتمع من الحنابلة اثنان . لكن الحنابلة ظلوا على طريقتهم . وأمسى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحفاظ على منهج السنف في التعبد والسلوك ومقاومة البدع تراثاً للمذهب .

وسرى بعد ، أنهم كانوا على حق في معاجلة البدع بالردع كي لا يستفحل خطرهما فيما بعد . والبدعة جرثومة تتكاثر ، فلا يقتصر أذاها على العامة وإنما يتعداهم إلى الخاصة . ويتنقل من السقطى إلى فضلاء ، ومن الضعفة إلى أقوياء .